

مقدمة

عند الاطلاع على العنوان الذي يحمله هذا الكتاب "إشراقات الأمل في دياجي الحزن والأسى" سَنُذَرِكُ لِأَوَّلِ وهلةٍ أَنَّ هذا الكتاب يحمل في طَيَّاتِهِ ملخَّصًا لجميع المتطلَّبات القلبية والفكرية والعاطفية التي يحتاجها العالم الإسلامي بشدَّة في هذه الأوقات العصيبة التي يمرُّ بها.

بل يمكن القول إن إنسان اليوم يتلوَّى في خِضَمِّ أزماتٍ أشدَّ عليه مما كان في عصر الجاهلية، فأضحى ينخدع بالأكاذيب، ويهرول وراء الأضواء المزيفة، ويلجأ إلى كلِّ السُّبُل والأنظمة لَعَلَّه يَجِدُ حلاً لِأَزَمَاتِهِ، أو كأنه ينتظرُ مُنْقِذًا خَارِقًا أو عصًا سحرية تُخَلِّصُهُ ممَّا حلَّ به، لكنَّ هذا السلوك عمق من شَرِّخ الأزمات.

وإن تسمية هذا الكتاب الذي بين أيدينا بـ"إشراقات الأمل في دياجي الحزن والأسى" وليس "أيام الحزن والأسى" فحسب ليعكس العالم الفكري لفضيلة الأستاذ فتح الله كولن، ويُجسِّدُ نظرته الإيجابية إلى ما حوله حتى في أَحَلِّكَ الظُّروفِ ومَلَقَى الخُتُوفِ.

أجل، إن الأستاذ كولن قد دأب في جميع مقالاته ودروسه على اتّباع أسلوب قرآني مُعَيّن؛ إذ إنه لا يكتفى بتشخيص الداء فقط، بل إنّه في الوقت ذاته يصفُ الدواء الناجع، ويبين نوعية التضخّم السليبي الناتج عن عدم الأخذ بهذه الحلول، وقدّر الجماليات التي يُمكن أن تُضفي علينا نتيجة التداوي بتيك العقاقير الروحية.

وما كتبه الأستاذ كولن من مقالات نحو: "الفوضى، الابتلاء، الأمل"، "الفوضى، والعالم السحري للإيمان"، "نور في خضم الفوضى"، "الفوضى، والآمال اليانعة" ليؤيّد كثيراً من الأفكار التي عرضناها آنفاً.

وإنّ من كلماته الرقاقة التي جادت بها قريحته في ختام حديثه في درس له سَجَل ونُشر في موقع (herkul.org) بعنوان "الحال والأمل" قوله:

"إن كلّ أمل بإذن الله وعنايته في أنكم ستتمسكون بالدساتير الماسية للقرآن الكريم والقيم الإنسانية العالمية، وتقدمون إلى الأمام على الدوام، تحذوكم نسمات الأمل في فتح قلوب الناس، وتتمكّنون بإذن الله وعنايته من التغلّب على حُسادكم في الداخل، وتجاوز المصائب والنكبات المحتملة في الخارج"^(١).

وكتاب "إشراقات الأمل في دياجى الحزن والأسى" يندرج ضمن سلسلة "الجرة المشروخة" التي تحتوي على دروس متنوعة ألّفها الأستاذ كولن في السنوات الأخيرة، وهذا الكتاب يرشد الأذهان إلى آفاق عالية، ويعزف على الوتر الحساس ويلامس شغاف القلوب بطرحه الفريد لموضوعات شتى؛ بدءاً من تفسير لبعض الآيات القرآنية حتى تحليل وشرح بعض الأحاديث النبوية، ومن الحياة الروحية والقلبية إلى الحياة الأسرية، ومنها إلى الحياة الاجتماعية، ومن الموقف الذي لا بدّ أن نتخذه

عند مواجهة الصعوبات التي تعترضنا في حياة الخدمة حتى قضايا التربية والتعليم، ومن الدعاء الذي لا تكتنفه الغفلة إلى الإخلاص الذي هو لبُّ العمل، ومن ذلك كلّهُ إلى العلاقة بين الإخلاص والجهاد، والموقف الإيمانيّ إزاء شبكاتِ النفاق التي تجيشُ قلوبها حقداً وحسداً، ومن الأزمات والآلام إلى الآمال التي علينا أن نتحلّى بها.

ونرى أنه من المناسب هنا أن نشارككم بعضَ الموضوعات التي جاءت بهذا الكتاب علّها تُسلِّطُ الضوء على مجمل ما جاء فيه من أفكار. فعلى سبيل المثال يوصينا الأستاذ فتح الله كولن بابتغاء مرضاة الله تعالى التي هي أعظم إحسانٍ من الله تعالى على عباده، فيقول في المقال المعنون بـ "نحو أفق الرضا":

"لما كان الرضا نعمةً أكبر بكثيرٍ من الجنة ونعيمها؛ وجب أن نرفع أيدينا إلى الله، ونضرع إليه بالدعاء دائماً قائلين: "اللهم بلغنا أفق الرضا". أجل، علينا أن تكون أنفاسنا قائمة على "اللهم اهْدِنَا إِلَى مَا تُحِبُّ وَتَرْضَى"، ونستشعر دائماً "اللهم عَفْوُكَ وَعَافِيَتُكَ وَرِضَاكَ"؛ لأن الله تعالى وعد بأنّه سيمنّ على الإنسان بما يطلبه بصدق وإخلاص، لكن لا بدّ من الإلحاح في الطلب؛ لأن استجابة الدعاء قد تتأخر بضع سنين أو عقوداً".

ثم يشير إلى الموقف الذي علينا أن نتخذه إزاء المنافقين بقوله في المقال المعنون بـ "الموقف الإيماني من شبكات النفاق الحاقدة":

"إنّ الآلام المستعصية، والخرابات الدائرة ينبغي ألا تُولّد اليأس في روح الإنسان، وألا تُصيّبه بالذعر، غير أنّ هذا لا يعني أنْ نغضّ الطرف عن الدمار والتخريب الحادث، بل على العكس علينا مشاهدة هذا التخريب والدمار المروّع، لأن رؤيته تُذكّر

الإنسان بمسؤولياته وواجباته، وبهذه الطريقة فإنّ ذا الفكرة المثالية والإحساس المرفف السليم سيفكر ويتدبّر فيما يطلبه الله تعالى من عباده الصادقين تجاه هذا المشهد، ويُرَكِّز على ما يجب القيام به من أمور قائلًا: "ترى لو أن نبيًا واجه مثل هذا المشهد ماذا عساه أن يفعل، وكيف كان سيتصدّى له؟".

وفي مقال "دعاء جامع لسيدنا رسول الله ﷺ" يضع الكاتب يده على مشكلة اجتماعية خطيرة، فيقول:

"كما أن بعض الحكّام الذين جاؤوا من بعد عجزوا عن الحفاظ على العدالة التي سادت في عهد الخلفاء الراشدين ولجؤوا إلى سبيل المحاباة؛ فكانوا -على سبيل المثال- إذا ما أرادوا إرسال أحدٍ حاكمًا أو واليًا على مكان ما أو قاسمًا للغنائم اختاروه من بين أقاربهم، بينما لم يُحابِ أيُّ واحدٍ من الخلفاء الراشدين ﷺ قريبًا ولا نسيبًا، ولم يميّزوا القريب من البعيد، ولم يُجاملوا أحدًا أبدًا؛ لأنّ الأمة التي تُوسد الأمانة لغير أهلها، وتعهّد بمسؤوليّاتها إلى الأقارب دون غيرهم أمةٌ قد انتهت أمرها، فكبر عليها أربعا".

وما أروع أن ننهي هذه الاقتباسات من الكتاب بقول الأستاذ كولن في مقال "الجدارة والاستحقاق":

"مع الأسف يظهر في كل عهدٍ من ينزعج ويتصجّر من نشر الاسم المحمديّ الجليل على صاحبه أفضل الصلاة وأتم السلام، ولكن القلوب التي وهبت نفسها لخدمة الإيمان والقرآن لا تأبؤه -وهي تؤدّي وظائفها- بهذا اللوم الجائر من هؤلاء، ولا تخشى تهديداتهم، ولا تستنكف عن طريقها، بل تسير دائمًا في طريق الحقّ حذرةً كيما تتعرّض بالعواقب التي تعترضها".

وأخيراً نرى من الأفضل أن نتطرق إلى مسألة مهمة لها علاقة كبيرة بموضوعنا ألا وهي أن قيمة المرشد الحق إلى الصراط المستقيم وحاجتنا إلى إرشاده وتوجيهاته تتبدى وتزداد أكثر في ساعة العسرة وأيام الأزمات وليالي المحن والاضطرابات، ومع هذا فبدهي أنه لا يتمكن الجميع من الاستفادة من هذه الإرشادات، ولا ينعم بها إلا الذين هيؤوا أنفسهم وقلوبهم لتلقيها.

وفي هذا الصدد نتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى فضيلة الأستاذ فتح الله كولن على إرشاداته وتوجيهاته، وندعو الله تعالى أن يتم نعمته عليه بالصحة والعافية ولا يحرمنا من مؤلفاته وإرشاداته وتوجيهاته. والله أعلم بالصواب.

أكتوبر/تشرين الأول (٢٠١٥م)
دار النيل للنشر والنوزيع